نِعمَةُ البَلاءِ

مقدمة

النِّعمةُ الحقيقية هي في السعادة الأُخروية أو ما يُوصِل إليها، فإنْ كانت اللَّذة والسعادة مقصورةً على الأمور الدُّنيوية فليست بنعمة، إذْ كلُّ نعمةٍ لا تُقرِّب من الله –تعالى– فهي بَلِية، وليست بنعمة، فقد يكون الابتلاء نعمةً عظيمةً، وقد تكون السعادة الدنيوية بلاءً عظيمًا.

والمؤمن ينظر إلى الابتلاء على أنه نعمة عظيمة، وهذه النعمة يَمُنُّ الله بها على عباده المؤمنين خاصة؛ فإنه كلما كان الإنسانُ إلى الله أقرب أنزلَ عليه من البلاء ما يُكفِّر به ذنوبه، ويرفعه درجات عالية حتى يكون عند الله من المقرَّبين.

إنَّ الابتلاء يكون نِعمةً عظيمة إذا تلقَّاه المؤمنُ بالصبر والاحتساب عند الله –تعالى– والابتلاء فيه فائدةٌ عظميةٌ تَعُود على المؤمن في دِينه ودُنياه؛ فتتربَّى نفسُه على الصبر، ويقوى بذلك إيمانُه.

عناصـــر الموضـــــوع

1 نعمة البلاء.

2 موقف المؤمن من البلاء.

3 أقوال أهل العلم في فضل البلاء.

4 أحاديث نبوية شريفة فيها تَسليةٌ لِلمُؤمنِ فيما يُصيبُه مِن مَصائِبِ الدُّنيا

5 الحديث الأول: «لا يُصيبُ المرءَ المؤمنَ مِن نصَبٍ ولا وصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا غمٍّ..”

6 الحديث الثاني: «من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك..”

7 الحديث الثالث: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ..”

8 الحكمة من البلاء.

فالـمؤمن ينظر إلى الابتلاء على أنه نعمة عظيمة، وهذه النعمة يَمُنُّ الله بها على عباده الـمؤمنين خاصة؛ فما يقدّرُه اللهُ –سبحانه– هو الخيرُ للمؤمن، سَواءً ظهرت لنا الحكمةُ أو لم تظهر. كم هي الأحداثُ والوقائعُ التي تحصلُ في خاصّةِ حياتِنا أو في العالم من حولِنا، ونحن لا نتمنّاها ونكرهُ وقوعَها!! تفقد شيئًا، تتم سرقتك، تُتهم في أمر، يتسلط عليك قوي، أو تتضايق من معامله أحد أو تتفاجأ بخبر: أحدُنا يشتري سيارةً جديدةً جمع ثمنَها سنينَ عُمُرِه، ثم لما فرح باقتنائِها تعرضَ لحادثٍ أتلفها، أو آخرُ يُبَشَّرُ بمولودٍ قد شارفَ على القدومِ في الدنيا ليزيّنَ حياتَه، ويُبهِجَ أيامَه، ثم لما يصلُ ذاك الـمولودُ يفجؤُه الأطباءُ بخبرِ مَرَضٍ، فيفسدُ ذلك الخبرُ فرحتَه، ويعكّرُ حياتَه، وقد يطولُ فيها البلاء.

كلنا قد تعرضَ لمواقفَ كهذه أو قريبةٍ منها، وهنا تتداخلُ الأفكارُ، وتتعددُ الـمواقفُ، وتختلفُ التقديراتُ، ويأتي السؤال من البعض بلسانِ الحالِ أو الـمقالِ: لماذا يا رب؟

موقف المؤمن من البلاء

وفي كل الأحوالِ يجب أن يكونَ موقفُ المؤمنِ واحدًا:

١. هو التسليمُ بأقدارِ اللهِ،

٢. والرضا بقضائِه،

٣. وحسنُ الظنِّ به –سبحانه–،

٤. وحينها سيكونُ كلُّ ما يصيبُه خيرًا له، كما قال النبيُّ ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ المؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له»[1].

(١) الراوي: صهيب بن سنان الرومي | المحدث: الألباني | المصدر: السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: ١٤٧ | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط مسلم | التخريج: أخرجه أحمد (٢٣٩٣٠) مطولًا باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (٢٩٩٩) بنحوه؟

٥. ويكفي المؤمنَ أن يعلمَ الحكمةَ العامةَ لكل المصائبِ والبلايا، فالمصائب امتحانٌ واختبارٌ، ليرى اللهُ العبدَ: أيرضى أم يسخطُ؟ أيصبرُ أم يجزع؟

«إن عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن اللهَ – عز وجل – إذا أَحَبَّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رَضِيَ فله الرِّضَى، ومن سَخِطَ فعليه السُّخْطُ»[١].

٦. والمصائبُ تمحيصٌ من الذنوبِ، كما قال النبي ﷺ: «حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِن خَطَايَاهُ»[٢].

٧. والمصائب رفعةٌ في درجاتِ المؤمن، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا سبقتْ له من اللهِ منزلةٌ فلم يبلُغْها بعملٍ، ابتلاه اللهُ في جسدِه أو مالِه أو في ولدِه، ثم صبر على ذلك؛ حتى يُبلِّغَه المنزلةَ التي سبقتْ له من اللهِ عزَّ وجلَّ»[٣].

وفي هذا الحديثِ يَقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إنَّ العبْدَ إذا سَبَقت له مِنَ اللهِ مَنزِلةٌ"، أي: كتَبَ اللهُ له مِن قَبلِ خَلقِه درَجةً في الجنَّةِ «لَم يَبلُغْها بعمَلِه، ابتَلاه اللهُ في جسَدِه، أو في مالِه، أو في وَلَدِه، ثمَّ صَبَّرَه»، أي: رَزَقه الصَّبرَ «على ذلك»، فلَم يَكُنْ شاكِيًا مُتسخِّطًا، «حتَّى يُبلِّغَه المنزِلةَ الَّتي سبَقَتْ له مِن اللهِ تعالى»، فيَكونُ هذا مِن توفيقِ اللهِ للعَبدِ إلى الطَّاعاتِ، حتَّى يُبلِّغَه المنزِلةَ الكريمةَ الَّتي أعَدَّها له سبحانه.

وفي الحديثِ: بَيانُ أثَرِ الصَّبرِ على المصائِبِ في رَفعِ الدَّرَجاتِ.

---

(١) الراوي: أنس بن مالك | المحدث: الألباني | المصدر: هداية الرواة | الصفحة أو الرقم: ١٥١٠ | خلاصة حكم المحدث: حسن | التخريج: أخرجه الترمذي بعد حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).

(٢) الراوي: أبو هريرة | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٥٦٤١ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) الراوي: اللجلاج بن حكيم السلمي والد خالد | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح أبي داود | الصفحة أو الرقم: ٣٠٩٠ | خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الابتِلاءُ مِنَ حِكَمِ اللهِ تعالى ليَختبِرَ عباده، وفي الابتلاءِ خيرٌ للعَبدِ الصَّابرِ الشَّاكرِ؛ يَغفِرُ بِه اللهُ تعالى للعَبدِ ذُنوبَه، ويَزيدُ في درَجتِه ويَرْفَعُ مَنزِلَتِه في الجنَّةِ.

فكل شيء يصبح سهلًا ويسيرًا بالصبر واحتساب الأجر والثواب من الله عز وجل، مرضك الذي تتألم منه، وهمك الذي أتعبك وأشغل بالك، وأشياؤك وحاجتك التي تفتقدها، وأحلامك التي لم تتحقق لك؛ سيأتي بها الله ويحققها لك، فأنت في صبرك مأجور، وفي حسن ظنك بربك وخالقك مأجور، وفي ما أصابك من مرض وتعب مأجور،

تفسير حديث: «إنَّ العبدَ إذا سبقتْ له من اللهِ منزلةٌ فلم يبلُغْها بعملٍ»[1].

(١) من موقع الموسوعة الحديثية الدرر السنية.

أقوال أهل العلم في فضل البلاء

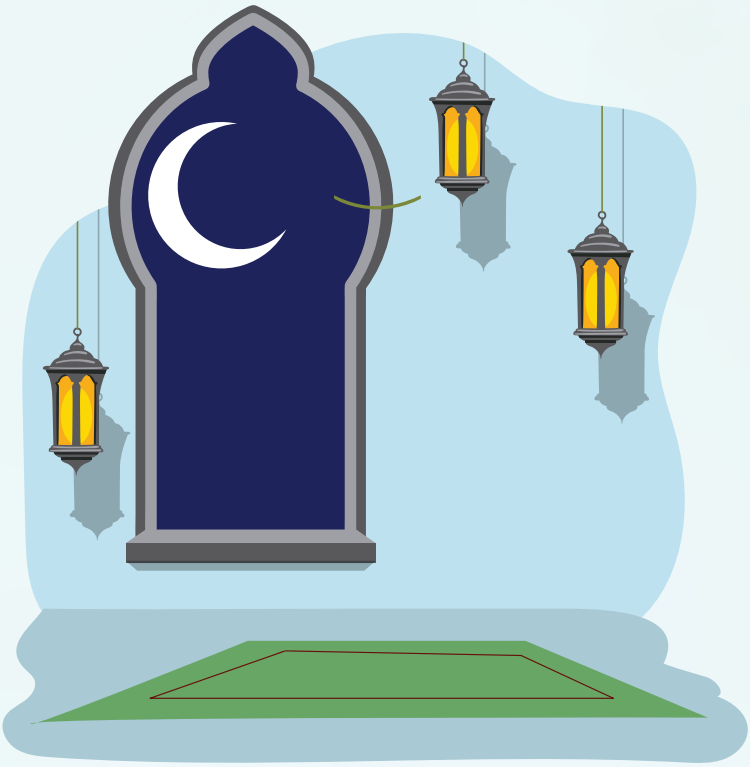

يقول ابن القيم: إن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خيرٌ للمؤمن من عدمه[1].

وإذا واجهك بلاء أو مشكلة في حياتك فتذكر أنها مقدرة من الله تعالى عليك، وأنها ستكون سببًا في مغفرة سيئاتك إذا صبرت، وأنها مؤقتة وليست دائمة، وأن الله سيعوضك بخير منها في المستقبل أو الآخرة؛ ولعل في ذلك إيقاظًا لك ودافعًا إلى محاسبة نفسك، والرجوع إلى الله والقيام بأوامره، ونبذ أسباب الضعف وطلب النصر من الله.

(١) ص١٨٨ – كتاب إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ت الفقي – الثالث عشر تابع – المكتبة الشاملة.

قال ابن الجوزي– رحمه الله: «رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجًا يزيد عن الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم»[١].

فلولا البلاء ومصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس، قال ابن القيم في زاد المعاد عند كلامه عن علاج حر المصيبة وحزنها: «أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا ببابه، لائذًا بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعًا قصص الشكوى إليه)[٢].

عن محمد بن سلام البصري الجمحي قال: «الإنسان في غفلة حتى يوقظ بعلة»[٣]

قال ابن القيم رحمه الله: «لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد – من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب – ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه. كما قيل: قد ينعم بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم؛ فلولا أنه – سبحانه – يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله – سبحانه – إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أَهَّلَهُ لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه»[٤].

---

(١) موسوعة فقه الابتلاء – ٤/ ١٢٩

(٢) ص١٦٦ – كتاب تسلية أهل المصائب – فصل في أن من يبتلي بالمصائب هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين – المكتبة الشاملة.

(٣) تاريخ بغداد (٣/٢٧٦).

(٤) زاد المعاد (٤/١٧٣).

الحديث الأول

قال ﷺ: « لا يُصيبُ المرءَ المؤمنَ مِن نصَبٍ ولا وصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزنٍ ولا غمٍّ ولا أذًى حتَّى الشوكةُ يُشاكُها إلَّا كفَّر اللهُ عنه بها خطاياه»[1]

وفي هذا الحديثِ تَسليةٌ لِلمُؤمنِ فيما يُصيبُه مِن مَصائِبِ الدُّنيا، أيًّا كان نَوعُ هذه المصائِبِ وحَجمُها؛ كَبيرةً أو صَغيرةً، جَليلةً أو حَقيرةً، تكونُ تَكفيرًا لِذُنوبِه، وكذلك مَا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وهو وَجعٌ مُلازِمٌ ومُستمِرٌ لصاحبِهِ، وهو ما يُعرَفُ في عَصرِنا بالمرضِ المزمِنِ. وَلَا نَصَبٍ، وهو ما يَشعُرُ به مِن تَعبٍ في أعمالِ الخيرِ وطَلَبِ الحلالِ، ويَشمَلُ أيضًا كلَّ وجَعٍ وفُتورٍ يُصِيبُ البدَنَ. وَلَا سَقَمٍ، ويَشمَلُ كلَّ مَرضٍ حتَّى لو كان خفيفًا. وَلَا حَزَنٍ، أي: على فقْدِه لشيْءٍ أو لِمَا أصابَه مِن الابتلاءِ. والهمُّ، ويَنشَأُ عن التفكرِ فيما يُتأذَّى منه، والغمُّ، كَربٌ يَحدُثُ للقلبِ بسَببِ ما حَصَل (مَكروهٍ وقَعَ بهِ)، يُقلِقُ الإنسانَ ويَشتغِلُ به فِكرُه مِن شَيءٍ يَخافُه أو يَكرَهُه.

تفسير حديث: «لا يُصيبُ المرءَ المؤمنَ مِن نصَبٍ ولا وصَبٍ» من موقع الموسوعة الحديثية الدرر السنية.

مَنْ منا ليس في ضيقة؟ مَنْ منا خال من شدة؟ مَنْ منا سليم من مرض؟ مَنْ منا لا يشكو من ألم؟ مَنْ منا لا يحتاج إلى مال؟ مَنْ منا سلم من الديون؟ مَنْ منا يخلو من الهموم؟ وكم منا يعيش في غموم؟ الزوجة من جهة، والأب من جهة والأولاد من جهة، والجيران من جانب. فما أصابَه مِن شَيءٍ مِن ذلك كلِّه، إلَّا كانتْ تلكَ الأوجاعُ سَببًا في غُفرانِ بعضِ ذُنوبِه –وهي الصَّغائرُ– ومَحْوِها إذا صبرَ، واحتسَبَ في ذلكَ الأجرَ عندَ ربِّه،

(١) الراوي: أبو هريرة وأبو سعيد الخدري | المحدث: ابن حبان | المصدر: صحيح ابن حبان | الصفحة أو الرقم: ٢٩٠٥ | خلاصة حكم المحدث: أخرجه في صحيحه.

فالإنسان يبتلى تارة في نفسه بالمرض ونحوه، وتارة بالولد، وتارة بالمال، فلا بدّ من الصبر، وهذا مِن تَطْهيرِ اللهِ تَعالى للمؤمنِ بما يَبْتليهِ بهِ مِن أُمورِ الدُّنيا حتَّى يُنقِّيَهِ من ذُنوبِه، فيَلْقى اللهَ خاليًا مِنها، فيُنعِم عليه مِن فَضلِهِ، فيكونُ أمرُ المؤمِنِ كلُّه خيرًا؛ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شَكَرَ، وإنْ أصابَتْه ضرَّاءُ صبَرَ، فكانَ خيرًا له.

الحديث الثاني

من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فقلت: يا رسول الله، إنك تُوعَك وعْكًا شديدًا، قال: أجل، إني أُوعَك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنوبه كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقها[1]

فعلاقة هذا الحديث بباب الصبر واضحة، وذلك أن النبي ﷺ وهو أفضل من وطئ على الأرض ﷺ كان يصيبه من ألم الحمى ما يقع على رجُلين اثنين، وأنتم تعرفون الحمى حينما تقع بالواحد منا كيف تنهار قواه، بحيث إنه لا يستطيع أن يقوم ويتصرف في شئونه، بل هو في حال الله يعلمها، فإذا كان ذلك الذي يقع لهذا الإنسان فتنهدّ قواه بسببه، يقع للنبي ﷺ ضعفه فهذا يدل دلالة واضحة على أن شدة البلاء، وأن شدة المرض لا تعني أن الله عز وجل يمقت العبد، فإذا وقع فيه بليةٌ أو نازلةٌ فلا يعني ذلك هوانه على ربه سبحانه وتعالى، وإنما يُشدَّد عليه في هذا، ويصبر، فهو مأمور بالصبر، والصبر واجب، فيكون ذلك أعظم في أجره، فإنّ عظم الجزاء على عظم البلاء.

فهذا ابن مسعود قد رأى ما بالنبي ﷺ من شدة الحرارة، فمَسَّه بيَدِه، فقال له: يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديدًا، يعني: أن الحمى تصيبك إصابة بليغة، والوَعْك هو الحمى وحرارتها وشدتها وألمها. قال: أجل، وهذه الكلمة أبلغ في الإجابة، كأنه قال: نعم، لكنه جاء في لفظة أبلغ في أداء المعنى وتحقيق الجواب، قال: أجل، ذلك كذلك، قال: أجل، يعني: أن الأمر كذلك، إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم وهو أشرف الخلق، فإذا وقع بك شيء تكرهه فينبغي أن تتذكر ذلك، أن هذه الأعراض

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول (٥/ ٢١٣٩)، رقم: (٥٣٢٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٤/ ١٩٩١)، رقم: (٢٥٧١).

التي تصيب الإنسان من جملة ما يَحُطُّ به عنه الخطايا، ويرفعه في درجات الجنة عاليًا، فلا ينبغي له أن ينزعج، أو أن يتململ، أو أن يتضجر، فنحن نرى من الناس من إذا أصيب بالحمى أو بنحو ذلك انفرط صبره، وجعل يتسخط، ويتذمر، وهذا أمر لا يجوز، المرض لا يرتفع بتذمره، ولا يستفيد شيئًا، فالتذمر ليس علاجًا، وكذلك أيضًا هو حينما يفعل ذلك يفقد أجره فلا يكون له من هذا التذمر إلا تعذيب النفس، وتعذيب من حوله ممن حضره من أهله ونحو ذلك، فإن هذه الأمور تؤثر في النفوس تأثيرًا ظاهرًا، فإذا كان هذا الإنسان المريض يتأوه ويتضجر ونحو ذلك، فإن ذلك ينعكس ألما وحزنًا في نفس ذويه وأهله، لكن لو أنه صبر وحمد الله عز وجل، ولم يبدُ منه شيء لكان ذلك خيرًا له. قال ابن مسعود: ذلك أن لك أجرين؟ قال: أجل، ذلك كذلك يصيبه المرض مضاعفًا، فيكون له الأجر مضاعفًا. ثم بيّن النبي ﷺ هذا ليُشعر أن البلاء العظيم إذا نزل بالمؤمن غير النبي ﷺ أن ذلك يكون أعظم في جزائه، فقال ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عنه ذنوبه، كما تَحطُّ الشجرة ورقها[1].

ولفظة «فوقها»، تحتمل معنيين: الأول: ما هو أدق منها، وأدنى منها، وهذا لا يتصور –أقل من الشوكة، فما فوقها يعني في الدقة والصغر. الثاني: فما فوقها يعني ما هو أكبر وأعظم منها، وهذا هو الأقرب المتبادر، لأن الإنسان عادة يعبر بالشوكة عن الأدنى، فذكر الأدنى والأقل، تقول: فلان لا أحتمل أن تصيبه شوكة مثلًا، لا أحب أن تصيبه شوكة، بمعنى: أنك ذكرت الأقل. ما من مسلم يعني: سواء كان مطيعًا أو فاسقًا، على عبادة عظيمة أو هو مقصر، إذا وقع له البلاء والمرض فإن الله يكفر عنه من ذنوبه. لم يقل: ما من مسلم تقي، ما من مسلم عابد، ما من مسلم مشمر في طاعة الله، بل قال: ما من مسلم أيّ مسلم يقع له شيء من ذلك إلا كفر الله بها سيئاته، ولم يذكر هنا قضية الاحتساب، فإذا أخذنا بظاهره نقول: إنه يؤجر على ذلك، وإن لم يستحضر الاحتساب، لكن بشرط أن لا يتسخط؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١)، وأحمد (٤٢٠٥) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٥٠٥).

التسخط حرام، اعتراض على قدر الله عز وجل. إلا كفر الله بها سيئاته، والسيئات إنما سميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها حينما يقرؤها في كتابه في اليوم الآخر، حينما يرى المعصية مكتوبة، وهذا وجه في تفسير السيئات. وحُطت عنه ذنوبه توضع عن ظهره، كأنها أحمال على ظهره تثقله وترهقه فتوضع هذه الأحمال والذنوب، كما تحط الشجرة ورقها، أرأيتم إلى الشجر في فصل الخريف؟ لا تبقى إلا الأغصان، فكذلك المرض، ولذلك جاء في آثار وأحاديث: أن أهل البلاء يتمنون أن ذلك قد ضوعف عليهم في الدنيا، لِمَا يرون من الجزاء في الآخرة[1].

(١) موقع الشيخ خالد سبت (شرح حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك..).

الحديث الثالث

وعند الترمذي بسند صحيح، أن النبي ﷺ قال: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» (١)

جعَل اللهُ ابتِلاءَ العبادِ بالمصائبِ والبَلايا كفَّاراتٍ للذُّنوبِ، ومحوًا للسَّيِّئاتِ، وذلك أنَّ اللهَ إذا أحَبَّ عبدًا ابتَلاه لِيَغفِرَ له ذنوبَه، حتَّى إذا لقِيَه لم يَكُنْ عليه خطيئةٌ.

وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ : «ما يَزالُ البلاءُ بالمؤمِنِ والمؤمنةِ»، قوله ﷺ: ما يزال البلاء بالمؤمن... وهذا يدل على التتابع والاستمرار،

(١) الراوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي الصفحة أو الرقم: ٢٣٩٩ | خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح التخريج: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) واللفظ له، وأحمد (٧٨٥٩)

وأن هذا البلاء لا يكون مرة واحدة يلقى فيها ما يكره، ثم ينتهي كل شيء، و قد تكون أيام العافية أكثر من أيام البلاء، ولكن الإنسان لا يزال يرد عليه من الواردات ما يؤلمه، ويكدر عليه راحته، وينغص عليه عيشه من ألوان الآلام الحسية والمعنوية، مما يتصل بذاته، كما قال هنا في الحديث: بالمؤمن والمؤمنة في نفسه. ويظَلُّ البلاءُ يتَنزَّلُ عليه، «في نَفسِه»، أي: في صِحَّتِه وجسَدِه، والهموم التي تصيبه من الأحزان والأمراض، وكل ذلك مما يقع عليه من الجوع والعطش والإنهاك والإرهاق، فكل هذه الأمور الواقعة على النفس والبدن يكفر الله عز وجل بها خطاياه. «وولَدِه»، أي مما يحصل للولد من المكاره التي تؤلم الأب، كالمرض والموت والإخفاق في دراسته، والإخفاق في عمله، والإخفاق في أمور تُهم والده، فيتطلع إلى تحقيق نجاح فيها، فإذا أخفق الولد وفشل فإن الأب يتألم لذلك، أو عقوقٍ أو غيرِ ذلك، فيكون ذلك تكفيرًا لخطايا هذا الوالد، ويدخل في الولد البنت والابن؛ لأن الولد يشمل هذا، وهذا. «ومالِه»، أي: مِن افتِقارٍ وذَهابِ تِجارةٍ وكَسادِ عيشٍ وضيقٍ في الرِّزقِ، وذلك بضياع شيء منه، أو بالسرقة، أو بالخسارة، كأن يدخل في تجارات أو غير ذلك، فيغرق المال، ويضيع ويتلف، كل ذلك يؤجر الإنسان عليه، ويحصل له تكفير الخطايا. ومع أن هذه الأمور متفاوتة إلا أن الثلاثةَ أمورٌ تهم الإنسان غاية الأهمية، فنفسه أغلى شيء لديه، وولده قطعة من كبده بل من قلبه، وماله كذلك حبيب إلى نفسه، "حتَّى يَلْقى اللهَ وما عليه خَطيئةٌ"، بمعنى: أن ذلك لا يزال به حتى يلقى الله حتَّى يُكفِّرَ اللهُ عنه بذلك البلاءِ كلَّ ذُنوبِه وخَطاياه حتَّى إذا لَقِي اللهَ يكونُ قد طَهُر مِن كلِّ الذُّنوبِ والآثامِ الَّتي ارتكَبها: أنه يُحط عنه من الخطايا شيئًا فشيئًا، في كل بلية يلقاها يوضع عنه من الخطايا وتكفر عنه السيئات، حتى يتخفف كاهله من هذه الأوزار، فيكون قد لقي الله عز وجل في نهاية المطاف وقد نفض عنه غبار الذنوب، فسقطت تلك الأحمال والأوزار الضخمة التي ترهقه وتثقله.

وإذا تأمل العبد هذا المعنى فإنه يُهون عليه ما يلقاه من الآلام مرة بعد مرة، ولا يرِد عليه السؤال الذي يورده بعض من لا فقه له، يقول: لماذا؟ أنا الآن أصلي، وأعبد الله عز وجل، ولا تزال كل مرة تأتيني مصيبة وبلية، مرة بالمال، ومرة بالنفس، ومرة بالولد؟ فنقول: هذا غير وارد؛ لأن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فلا تزال ترد عليك هذه الأمور، حتى تغسل عنك الذنوب، كاليد تغسل الأخرى، فلابد من حركة وتكرار، وفرك لاسيما ما يعلق من الأوساخ، فلا يرتفع إلا بنوع كلفة، فهذه الكلفة هي الآلام التي تستشعرها في نفسك، فيحتاج ذلك إلى نوع ملاحظة، ويكونُ لهم على ذلك الجزاءُ الحسَنُ يومَ القيامةِ[1].

والدار الآخرة هي النقية الخالصة للمتقين، جنة لا هم فيها ولا نصب، لا امتحان فيها ولا ابتلاء، نسأل الله -تعالى- من فضله؛ ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾[2]، فالبصير في هذه الحياة من آثر الآخرة على الفانية، والموفق من جعل همه وغاية مقصده الدار الآخرة؛ ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾[3].

..فتذكَّر لطف الله تعالى عليك،

وهكذا يكون حال المؤمن ما بين الابتلاءات ونزول الرحمات حتي يُلاقي الله عزَّ وجلَّ، تلقى البلاء بالرضا بقضاء الله وقدره، وهذا من أعظم ما يُعين العبد على المصيبة، قَالَ تَعَالَى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾[4]؛ فاصبر على قضاء الله

(١) من موقع الشيخ خالد سبت (شرح حديث مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمؤْمِنِ وَالمؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ..).

(٢) [الْعَنْكَبُوت: ٦٤]

(٣) [الْأَعْلَى: ١٦-١٧]

(٤) [سورة الحديد: ٢٢]

وقدره، واعلم أن الله أعدَّ لكَ عندَ المصيبة الخيرَ الأوفى، والعاقبةَ الحسنى.

لا يُفهَم من هذا أنَّ الابتلاءَ أفضلُ من العافية، بل العافية أفضل من البلاء؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يسأل اللهَ -تعالى- العفوَ والعافيةَ في دِينه ودُنياه؛ فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ -حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي»[1]

وعن ابنِ عباس -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ: «يَا عَمِّ، أَكْثِرِ الدُّعَاءَ بِالْعَافِيَةِ»[2]

فالبلاءُ أجرُه عظيم إلاَّ أنَّ العافيةَ أحبُّ إلى نَفْسِ المؤمن، فلعلَّه لا يستطيعُ الصبرَ على البلاء.

فالبلاء من قدر الله المحتوم، وقدر الله لا يأتي إلا بخير فاستعن بالله والجأ إليه واطلب منه المعونة، واسأله أن يُلهمك الصبر والرضا بقضائه؛ كي يهون عليك البلاء، وتنجح في الامتحان الذي يورثك الجنة إن شاء الله تعالى. كل تأخير، وكل تأجيل، وكل عقبة وكل تحدٍّ خير لك ليس شرطًا أن تلاقي له مبررًا، أي ليس شرطا أن تعرف السبب، كل ما تحتاجه هو ثقة بالله العظيم الذي قدره عليك، وأنه كله خير لك والقادم فرج من الله عز وجل.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٣٠)، وابن ماجه (٣٨٧١).

(٢) المصدر: صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم: ٣٥١٤ | خلاصة حكم المحدث: صحيح | التخريج: أخرجه الترمذي (٣٥١٤).

المراجـــع

1. شرح: حديث «من أصابته فاقة..»، «من تكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا..» من موقع الشيخ خالد سبت.
2. مع الشدة والكربة والضيقة يأتي الفرج واليسر والنصر فؤاد بن يوسف أبو سعيد.
3. نعمة الابتلاء – محمود بن أحمد الدوسري.